أسلوبية البنية الافتتاحية في الخطاب النبوي الشريف

د.ة. فوز سهيل كامل نزال*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١١/٣/٢٧م تاريخ قبول البحث: ٢٠١١/١٠/٣م

ملخص

تتحدث هذه الدراسة عن أسلوبيّة البنية الافتتاحية أو مايسمى بـ (بنية الاستهلال) في طائفة من أحاديث الرسول ﷺ، الذي كان حريصاً على ايصال كلامه وما فيه من الهُدى للمتلقّي بأسلوب ذكيّ يُجسّم المضمون ببيان وحكمة بعد أن يقدم له تقديماً لافتاً، يجذب السامع إلى الانصات، فالاقتناع، فالاعتقاد، فالتطبيق الفعلي لأوامر الرسول ونواهيه.

والناظر في البنى الافتتاحية لأحاديث الرسول ﷺ يلمس قوة كامنة متجسمة في دقة اختيار المفردات، وانسجامها مع القالب التركيبي الذي تقولبت فيه، وتغلغلها في محتوى الخطاب وبنائه، وذلك بعد أن تلمّح باختصار عمّا يحتويه من مضمون، ثم يجد هذه البنية متصلة بنهاية الخطاب الشريف بعد اشباع المعنى المقصود مُحققةً الالتئام والانسجام، أو ما يسمى بالتماسك النصي بين البَدْء والخاتمة.

أي أنّ البنية الاستهلالية تتسع لتشمل النص كله، فحسن الانتهاء لا يتحقق دون الاستهلال الحسن، وهذا يعني صياغة متماسكة.

وسنحاول في هذه الدراسة الربط بين هذه البنية النواة وبين عناصر الخطاب.

وجاء الاختيار لأكثر البنى الافتتاحية حضورا في الخطاب النبوي الشريف مُتمثّلا في الافتتاح بـ: السؤال، القسم، التوكيد بإنّ ، التحذير، المدح أو الذم، الدعاء، التعجّب، النداء، الأمر والنهي، الشرط، العدد، ضمير المتكلم، وعبارة (أمّا بعد).

Abstract

This study deals with The Stylistic of the Initiative Structure, or what is called (the structure of initiation) in a collection of Prophet Muhamad , peace be upon him , commandments, who was careful to deliver his speech and what it contains of guidance to the recipient via an intelligent way represents the content eloquently after providing a remarkable introduction that draws the hearer attention, then convincing, then belief, and then the practical application of the Prophets' commands and contraindications.

The one who observes the initiative structures of the prophet's commandments can touch a potent power which is presented by the accurate choice of words, and its harmony with the composition as a whole, and its penetration within the content of the discourse and its structure, after briefly giving hints about the content. Then, the connection between the structure and the conclusion of the Prophetic discourse will be clear after completing the intended meaning to accomplish unity and cohesion, or what is called coherence.

In other words, the initiative structure will include the whole text. Thus the fine conclusion cannot be achieved without a fine initiation.

This study will attempt to connect this nucleus structure with the elements of speech.

The choice was for most prominent initiative structures in the honorable prophetic discourse which is introduced by: Questioning, swearing, warning, praising or reprimand, exclamation, supplication, calling, commanding and contraindicating, conditioning, numbering ,using the first person pronoun.

* أستاذ مساعد، كلية الآداب، الجامعة الأردنية.

تمهيد:

تتحدث هذه الدراسة عن أسلوبيّة البنية الافتتاحية أو مايسمى بـ (بنية الاستهلال) في طائفة من أحاديث الرسول ﷺ،معلمِ البشريّة، الذي كان حريصاً على ايصال كلامه وما فيه من الهُدى للمتلقّي بأسلوب ذكيّ يُجسّم المضمون ببيان وحكمة بعد أن يقدم له تقديماً لافتاً، يجذب السامع إلى الانصات، فالاقتناع، فالاعتقاد، فالتطبيق الفعلي لأوامر الرسول ونواهيه.

والناظر في البنى الافتتاحية لأحاديث الرسول ﷺ يلمس قوة كامنة متجسمة في دقة اختيار المفردات، وانسجامها مع القالب التركيبي الذي تقولبت فيه، وشُحنتها الدلالية المُضمرة فيها، وتغلغلها في محتوى الخطاب وبنائه، وذلك بعد أن تلمّح ببساطة واختصار عمّا يحتويه من فكرة أومضمون، ثم يجد هذه البنية متصلة بنهاية الخطاب الشريف بعد اشباع المعنى المقصود مُحققةً الالتئام والانسجام، أو ما يسمى بالتماسك النصي بين البَدْء والخاتمة.

وقد التفت نقادُنا القُدامى لأهمية البنية الافتتاحية في حديثهم عن الاستهلال أو براعة الاستهلال، فها هو ابن الأثير يتحدث عن شروط الاستهلال الناجح في الخُطبة حاصراً إيّاها في سهولة اللفظ، وصحة السبّك، ووضو ح المعنى، وتجنب الحشو، يقول:خ"ص ّ الافتتاح بالاختيار لأنه أول ما يطرق السمع من الكلام، ويجب أن يُراعى فيه سهولة اللفظ وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، ويجب أن يكون الافتتاح مرتبطا مع الخطبة ببراعة الاستهلال، فإن براعة الاستهلال من أخص أسباب النجاح في الخطبة"[١].

ويرى القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني أنّ على الشاعر الحاذق الاجتهاد في تحسين الاستهلال والتخلّص وبعدها الخاتمة، لأنها من المواقف التي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء[٢].

أي أنّ البنية الاستهلالية تتسع لتشمل النص كله، فحسن الانتهاء لا يتحقق دون الاستهلال الحسن، وهذا يعني صياغة متماسكة.

أمّا أسامة بن منقذ فيجعل حُسن الابتداء من دلائل البيان وذلك في باب المبادئ والمطالع[٣].

ويعرّف أحمد الهاشمي في جواهر البلاغة براعة المطلع بكونها "جعل الكلام رقيقاً سهلاً، واضح المعاني، مُستقلاً عمّا بعده، مناسباً للمقام بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكلية، لأنه أول مايقرع السمع"[٤].

ومن أهم الدراسات النقدية الحديثة التي تناولت موضوع الاستهلال تناولا عميقا واحتفت به دراسة ياسين النصير، وهي بعنوان (الاستهلال: فن البدايات في النص الأدبي)[٥]، وفيها حديث عن بنية الاستهلال في الآداب القديمة، والخطابة، والاستهلال الطللي في الشعر الجاهلي، وعرض موجز عن مفهوم الاستهلال في النقد العربي القديم، ومفهوم الاستهلال في الأدب الحديث مطبقا ذلك على المسرح والحكايا الشعبية والرواية والقصة القصير ة، وتُختتم بفصل يتناول فيه بنية الاستهلال في شعر بدر شاكر السياب.

ونذكر أيضاً دراسة محمد بدري عبد الجليل، وهي بعنوان (براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور)[٦] وفيها تحدث عن المقدمة الطلليّة في الشعر الجاهلي ثم تناول الحروف المقطعة في فواتح بعض السور القرآنية وعلاقة هذه الحروف ببناء السور الكلي.

وسنحاول في هذه الدراسة تأمل البنية الافتتاحية في طائفة مختارة من أحاديث الرسول محمد ﷺ تأملا أسلوبيا يربط الاختيار اللغوي بالدلالات الظاهرة والعميقة التي يرغب ﷺ في بعثها ليؤثر في عقل المخاطب ووجدانه، ثم نحاول الربط بين هذه البنية النواة وبين عناصر الخطاب.

وجاء الاختيار لأكثر البنى الافتتاحية حضورا في الخطاب النبوي الشريف مُتمثّلا في:

الافتتاح بالسؤال:

افتتح رسول الله ﷺ عدداً من خطاباته بالسؤال كما جاء في الحديث الذي رواه حارثة بن وهب، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "**ألا أخبركم بأهل الجنة؟**

كلّ ضعيف مُتضعَّفٍ لو أقسم على الله لأبرّه، **ألا أخبركم بأهل النار؟** عُتل جوّاظٍ مستكبرٍ "(٧).

والحديث الذي رواه أبو بكرة نُفيع بن الحارث، قال: قال رسول الله ﷺ: **ألا أُنبّئكُم بأكبر الكبائر؟**" – ثلاثاً – قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين". وكان مُتكئاً فجلس، فقال: "ألا وقول الزور وشهادة الزور" فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت(٨).

وقوله ﷺ لأبي سعيد رافع بن المُعلّى: "**ألا أعلّمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟**" ويُتابع أبو سعيد رواية الحديث الشريف قائلا: " فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته"(٩).

وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ: "**أتدرون ما الغيبة؟**" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "ذكرك أخاك بما يكره" قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته،وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه"(١٠).

وقوله ﷺ: "**أتدرون من المفلس؟**" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إنّ المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، يأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار"(١١).

وفي الحديث الذي يرويه أبو الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**ألا أنبّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وارفعها في درجاتكم، وخير لكم من انفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**" قالوا: بلى، قال: ذكرُ الله تعالى"(١٢).

وقوله ﷺ مخاطباً مجموعة من صحابته: "**أترضون أن تكونوا رُبُع أهل الجنة؟**" قلنا: نعم، قال: "**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**" قلنا: نعم، قال: "والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر"(١٣).

وغيرها من أقوال عديدة لرسول الله ﷺ استُفتحت بالسؤال. ولنا مع البنى الافتتاحية السابقة وقفة تأملية.

إن افتتاح الرسول ﷺ هذه الخطابات الموجهة للفرد والجماعة وغيرها بالسؤال يولد دلالات متعددة، يصعب حصرها.

ولعل بدء الخطاب بطرح الأسئلة يُعدُّ من الأساليب الناجحة في الإقناع، ففي اختيار السؤال لاستفتاح الخطاب استنهاض لقلب المتلقي وعقله، واستجماع لطاقاته المعرفية في مواجهة لغز السؤال.

وفي تركيب السؤ ال دلالة ناقصة لا تكتمل إلاّ بإجابة المتلقي الضمنية أو العلنية، وبهذا يتحول المتلقي من دور المتلقي المحايد الذي يكتفي بدور المتلقِن للمعلومة إلى دور المتلقي المشارك في إنتاج الدلالة.

ففي حديثه ﷺ عن أهل الجنة وأهل النار لم يستخدم أسلوب الخبر المباشر في إعطاء المعلومة وإنما طرق مسامع الصحابة بسؤال يثير فضولهم لمعرفة هوية أصحاب الجنة وأصحاب النار.

وقد جاء الحديث في جزءين، ولكل جزء بنيته الافتتاحية، وبذلك يتماثل أو يتقارب تركيز المتلقي على أجزاء النص.

وفي حديثه ﷺ عن أكبر الكبائر يكرر البنية الافتتاحية ذاتها ثلاث مرات، فيتضافر السؤال مع التكرار في لفت انتباه المخاطبين ومحاصرتهم بالتنبيه الصاعد النغمة.

ويرغّب عليه الصلاة والسلام أبا سعيد رافع بن المعلّى مشعراً إيّاه بالخصوصية في معرفة كنز من كنوز المعرفة الدينية، وهو تحديد أعظم سورة فيالقر آن، ولكنه ﷺ يتريث قليلاً قبل ذكرها، وكأنّه يريد من المتلقي أن يطلب المعرفة بإلحاح ورغبة لترسخ الفكرة في وجدانه،

وهذا ما حدث، فقد أعاد المتلقي الجملة الافتتاحية بتنغيم السؤال الممزوج بالإلحاح والحرص والفضول والرجاء، فقال: يا رسول الله، إنّك قلت: لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن؟

ونراه ﷺ يعرّف دلالات الكلمات بأسلوب السؤال أيضاً، وكأنه بالسؤال يستنطق إجابة المتلقي لمجابهته بجهله بمعرفتها، وذلك ليزوده بمعرفة تجنبه الوقوع في المعصية، كما جاء في حديثه عن مفهوم (الغيبة) التي لم يعرف الصحابة معناها: "**أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم" .

ونراه، ﷺ، يسأل السؤال استنطاقاً لإجابة المتلقي المتوقعة أو الحتمية، لا لإثباتها، ولكن لدحضها واستبدال دلالة جديدة بها؛ دلالة يرضاها الله ورسوله، فيأتي السؤال تنبيها على الإجابة المرادة، ومثال ذلك ما جاء في حديثه عن المفلس: "**أتدرون من المفلس؟**"

والمتأمل في اختيار الرسول للسؤال وسيلة لاستثارة اهتمام المتلقي وتشويقه يجده ﷺ يتحبب للمتلقي بذلك الانتقاء، فالتعليم لا يحتاج إلى عقل مجرد ولكنه يحتاج وهجاً من المشاعر التي تتلقفه فيدركه العقل: "**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟** قلنا: نعم، قال: **أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟** قلنا: نعم، قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة...".

إنه ﷺ يتدرج بالبنية الافتتاحية الأولى ليصل إلى الخبر الذي يريد ايصاله للمخاطبين (إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة) فإذا كان المخاطبون قد فرحوا واستبشروا بالقليل (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟) فما بالهم وقد أخبرهم الرسول بأنهم سيكونون نصف أهل الجنة؟!

الافتتاح بالقسم:

واستهلّ الرسول ﷺ طائفةً من خطاباته بالقسم، والقسم لون من ألوان التأكيد، به تترابط دلالات النص ترابطاً يمتد ليشمل كل عنصر من عناصره محققا قناعة المتلقي بالفكرة والحرص على الالتزام بمراد رسوله الله ﷺ.

ومن استهلاله ﷺ خطابه بالقسم ما جاء في الحديث الذي يرويه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: **<u>والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن</u>** " قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُهُ بوائقه"(١٤).

ومنه ما جاء في الحديث الذي يرويه أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **<u>والله إني لأستغفر الله،وأتوب إليه</u>** في اليوم أكثر من سبعين مرة"(١٥).

واستهل رسول الله ﷺ طائفة أخرى من خطاباته بالقسم "**والذي نفسي بيده**" كقوله في الحديث الذي رويه حذيفة ﷺ: "**<u>والذي نفسي بيده</u>** لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيُوشِكَنّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"(١٦).

وفي الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ: "**<u>والذي نفسي بيده</u>**، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدُلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"(١٧).

وفي تأمُّل البنية الافتتاحية للأحاديث الشريفة المذكورة نقول: إنه ﷺ، يبدأ بالقسم ويكرر جملة الاستفتاح **(والله لا يؤمن)** مرتين تكراراً تاماً، وفي هذا التكرار إشباع لفكرة عدم الإيمان ونفيها عن شخص سيتوق المخاطبون لمعرفة من هو، بعد أن استثار الرسول انتباههم ومخاوفهم، فتساءلوا بدهشة وخوف وحرص على معرفة هوية ذلك الإنسان الذي نفى عنه رسول الله ﷺ صفة الإيمان نفيا مؤكداً: "من يا رسول الله؟" وفي سؤالهم هذا تقدمت (من) على المنادى (رسول الله) مجسمة الدلالات السابقة.

ولو طرح الرسول الفكرة بأسلوب الخبر المباشر فقال: [لا يُؤمن من لا يَأمن جاره بوائقه] لما تحققت الأبعاد الدلالية السابقة في نفسية المتلقي.

كما نلاحظ هذا الاختيار الدقيق لكلمة (يَأمَنُ) المتجانسة لفظيا مع (يؤمن) الأمر الذي يوحي بالتجانس الدلالي؛ فالإيمان ناتج عن تحقُّق الأمان في حياة الجار.

وفي قوله ﷺ: **(والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه..)** نجد بنية افتتاحية حافلة بالتأكيد؛ القسم في (والله)، والتوكيد في (إني) و(لأستغفر).

والاستهلال في الحديث عن الاستغفار بهذه التوكيدات يولّد دلالة الإلزام غير المباشر أو الصريح في نفس المتلقي، وكأن رسول الله يأمر المخاطبين بالاستغفار (استغفروا)، كما أن في نسبة الفعل إلى شخص الرسول ﷺ زيادة في الإقناع والحث، والتنبيه إلى أهمية السلوك.

إنها بنى استهلالية صاعدة التنغيم، تشحن الخطاب من البدء إلى الخاتمة متملكةً انتباه المخاطب، فالرسول يقسم، وقسم رسول الله حق لا حنث فيه ولا باطل، وهو بقسمه يضاعف يقين وصدق كلماته الصادقة ليدرك المتلقي أنّه خطاب جلل فيلزم مطلوبه.

أمّا في الحديثْن اللذين استُهلاّ بقوله ﷺ: **(والذي نفسي بيده...)** فقد بدت البنية الاستهلالية عتبةً تفتح باباً لبناء منسجم مُتراص العناصر، فالمتأمل يرى أن كل جملة تسلمنا دلاليا إلى الجملة التي تليها وصولاً إلى الفكرة الأساسية التي توجت فيها خواتيم الخطاب.

فرسول الله يتبع الافتتاح بالقسم في الحديث الأول بالأسباب فالنتيجة، ولكنه في الحديث الآخر اتبع الافتتاح بالقسم بالنتيجة فالأسباب.

الافتتاح بأداة التوكيد (إنّ):

بالإضافة إلى التوكيد بالقسم،فقد استهلّ رسول الله طائفة من أحاديثه بـ **إنّ**) التوكيديّة كقوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو موسى ﷺ: **إنّ أعظم الناس أجراً في الصلاة**أبعدُهُم إليها ممشىً ،فأبعدُهُم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصلّيها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يُصلّي ثم ينام"(١٨).

وقوله ﷺ لأشج عبد القيس: **إنّ فيك خصلتين يحبهما الله**:الحِلم والأناة"(١٩).

وقوله ﷺ لرجل من الأنصار طلب منه أن يستعمل**إنّكم سَتَلقَوْن بعدي أَثَرَة**، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"(٢٠).

وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو قتادة الحارث ابن ربعي ﷺ: " **إنّي لأقوم إلى الصلاة**أريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمه"(٢١).

وقوله ﷺ في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها: "**إني لست كهيئتكم** إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني"(٢٢)، حيث يثير هذا الاستهلال فضول المتلقين في معرفة السمة التي اتسم بها رسول الله ﷺمتفرّدا عن البشر، ويتكرر التوكيد الذي استهلّل بهالخطاب مؤدِيا دور التفصيل.

وقوله في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ: "**ألا إنّ الدنيا ملعونة**، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى، وما والاه، وعالماً ومتعلماً"(٢٣).

إذا تأملنا بنية الافتتاح في قوله ﷺ: **إنّ أعظم الناس أجراً في الصلاة...)** نجد أن الفكرة فيها ناقصة، تنتظر تلاحما مع بقية أجزاء النص ليتحقق الاكتمال الدلالي، فالاستهلال هنا لا يفصح عن معناه دون التخلص وحسن الانتهاء، ولن يكون التخلص والانتهاء جيِّدَيْن دون استهلال متقن، وهذا يعني تماسكا دلالياً ولفظياً في النص من البداية إلى النهاية.

وسيتوق المتلقي لمعرفة خبر المبتدأ (أعظم الناس أجراً)المؤكد بإنّ ، ولا ننسى هنا أن نشير إلى أهميّة اختيار صيغة التفضيل (أعظم) وما تثيره من رغبة في تحديد المتميز بالأجر والثواب.

قد يفاجئ رسول الله ﷺ المتلقي بخطاب يستهله بضمير المخاطب المسبوق بإنّ ، وفي هذا توكيد للفكرة مُخصَّص الوجهة، أيرأنّ الخطاب يتصل اتصالاً مباشراً بمستقبله منذ البدء.وهذا متمثّل في قوله: **(إن فيك خصلتين ...)** وقوله: **(إنّكم ستلقون بعدي أثرة..)** حيث يواجه، ﷺالمتلقي بصفتيْن أكدّهما بإنّ وخص المتلقي بهما من باب التعزيز والثناء (فيك)، وأخبرخبرا يسرّه هوأنّ هاتين الصفتين (يحبهما الله)وبعد أن أجمَلَ فصّلهما للمتلقي الذي تشوّق لمعرفتهما.

ويحذّر ﷺ الذي طلب منه أن يستعمله من الأثرة، بحديث عام جماعيّ مُؤكّد بقوله: (إنكم)، رفعا للحرج عنه

وتحذيراً له ولغيره من سلوك سيظهر وينتشر، وهو ﷺ بهذا يؤكد نبوءة ستحدث وقد بدت بوادرها في سؤال الرجل.

وقد يُستهل الخطاب بإنّ المضافة إلى الضمير (أنا) العائد إلى رسول الله ﷺ، وهذا يثير من البدء فضول المتلقي لمعرفة ما نسبه الرسول إلى نفسه من فعل أو صفة، وذلك كما جاء في قوله: "**إنّي لأقوم إلى الصلاة**..."، وقوله: "**إني لست كهيئتكم** ...".

ونراه ﷺ يستفتح حديثه بأداة استفتاح وتنبيه تطرق الأسماع والقلوب لتلقي الخبر المقصود وهي (ألا)، كما جاء في قوله: "**ألا إنّ الدنيا ملعونة**..."، حيث ينبه ﷺ بـ(ألا) على فكرة مؤكّدة هي (الدنيا ملعونة)، وهو أسلوب يقرع قلب المتلقي وعقله ويواجهه بالحقيقة التي يغفل عنها معظم الخلق، ليحذَر مفاتنها ويحتقر ما فيها من متاع زائل، ثم يأخذ الرسول باستثناء يذكر فيه من يخرج من لعنةالدنيا التي استهلّ بها خطابه محفّزا المتلقي على الإلتزام بما استثناه ﷺ بقوله: (...إلاّ ذكر الله تعالى، وما والاه، وعالماً ومتعلماً).

الافتتاح بالتحذير:

حرص ﷺ في عدد من خطاباته على تنبيه المتلقي من أمر جلل عليه الاحتراس منه، فقدم لها بدوالٍّ تحذيرية حاصرت المتلقّي منذ البدء حماية له وتجنبا للضرر، وامتدت الجمل الاستهلالية بخيوطها إلى صُلب الخطاب في تعليل رسول الله ﷺ لتحذيره الذي استهل به خطابه.

ومثاله ما جاء في عتبة خطابه الذي رواه أنس ﷺ: "**إيّاك والالتفات في الصلاة** فإن الالتفات في الصلاة هَلَكَةٌ، فإن كان لا بدَّ ففي التطوع لا في الفريضة"[٢٤].

وقوله ﷺرسول مُحذّرا من الحسد: "**إيّاكم والحسد**، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"[٢٥].

والملاحظ في الحديثين الشريفين السابقين أن كلمتي (الالتفات) و(الحسد) اللتين جاءتا في مطلع الحديث قد تكررتا في صلب الحديث بعد الفاء التفسيرية وإنّ التوكيدية، لتسليط الأضواء على المفهوم أو الكلمة التي حذر الرسول منها محققة بتكرارها الترابط الموضّح بين المطلع وصلب الحديث.

الافتتاح بالمدح أوالذم:

استخدم رسول الله أسلوبَي المدح والذم في عدد من افتتاحيات أقواله، وفي ذلك جذب لسمع المتلقي لمعرفة المذموم وسبب ذمّه، أو الممدوح وعلّة مدحه، فالمخاطب يجذبه ذم الشيء ومدحه لما في الأمر من استثارة لفضول السامع لمعرفة هوية المذموم أو الممدوح.

ومثاله ماجاء في الحديث الذي رواه جابر ﷺأنّ النبي ﷺ سأل أهله الأُدم فقالوا:ما عندنا إلاّ خلٌّ، فدعا به، فجعل يأكلُ ويقول:"**نِعم الأُدمُ الخلُّ** نعم الأدمُ الخلُّ"[٢٦].

وقوله ﷺ: "**بِئس الطعامُ طعامُ الوليمة**، يدعا إليها الأغنياء ويترك الفقراء"[٢٧].

حيث جاء الاستهلال في قوله- عليه الصلاة والسلام- "**نِعم الأُدمُ الخلُّ** ..." نتيجة استثارة متمثلة في قول أهله حين سألهم الأُدم: (ما عندنا إلا خلٌّ)، ففي قولهم اعتذار وشكوى خفيّان يستدل عليهما بتنكير كلمة الخل تحقيراً له واستخفاضاً لشأنه، فاستفتح رسول الله خطابه بمدح المستحقر، لأنه ﷺ لا يعيب الطعام ويستحب مدحه، وقد كرر جملة الاستهلال توكيداً للمعنى السابق.

واستهلّ رسول الله ﷺ حديثه بذم طعام الوليمة: "**بِئس الطعامُ طعامُ الوليمة**..."مُعلِلا ذمَّه بما يُظهر رحمتَه بالفقراء والمساكين الذين يتم استثناؤهم من حضور طعام الوليمة.وفي التعليل لهذه البنية الافتتاحية إقناع وتوضيح وبيان يربط الخطاب من مطلعه إلى خاتمته، رغم كون الجملة الافتتاحية مكتملة الدلالة بما فيها من مبتدأ وخبر تفصيلي.

الافتتاح بالدعاء:

واستهل رسول الله عدداً من خطاباته بالدعاء، والاستهلال بالدعاء يجعل المخاطب حريصا على معرفة صفة ذلك الإنسان الذي دعا له رسول الله بالخير ليلزم صفته وينال شرف دعاء رسول الله وبركته.

ومثاله ماجاء في الحديث الذي رواه جابر ﷺأنّ رسول الله ﷺ قال: "**رحم الله رجلاً** سمْحاً إذا باع،وإذا اشترى،وإذا اقتضى"(٢٨).

وقوله ﷺ في مطلع الحديث الشريف الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما: "**رحم الله امرءاً** صلى قبل العصر أربعاً"(٢٩).

إنّ دعاءه ﷺالذي استهلّ به حديثه: "**رحم الله رجلاً**..." دعوةٌ للسماحة في البيع والشراء والقضاء بما حملته من صفة االرحمة (رحِمَ) التي يتوق لها المؤمنون.

والاستهلال في قوله: "**رحم الله امرءاً**...." يُقنع المخاطَب بتنفيذ الدعوة الخفية الكامنة في الخطاب وهي أن يصلي سنة العصر قبل الفريضة، ليحظى بالرحمة.

ونلحظ أن الدعاء في مستهل الخطابيْن كان عاما غير مخصوص بشخص ما وإنما بسلوك مخصَّص مُتاح لأن يُنفذّه من يرغب في رحمة الله.

الافتتاح بالتعجب:

ويستهل رسول الله ﷺ عددا من خطاباته بأسلوب التعجب فيثير المخاطب مدخلاً إيّاه جوَّ الدهشة، وكأنّه يمهد للموضوع أو الفكرة بشحنة انفعالية، فيخرج المتلقّي من حياديّة التلقّي إلى الانفعال بما يسمع، كقوله ﷺ: "**عجباً لأمر المؤمن**إنّ أمره كلّه خير، وليس **ذلك** لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له،وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"(٣٠).

ففي الافتتاح بالعجب من أمر وحال المؤمن ما يعزز إثارة المتلقي بالتخصيص والحصر، وقد أُتبعت الجملة الاستهلالية بجملة تؤكد دلالتها وتوضحّ ما فيها من دهشة (إنّ أمره كله خير)،ثم يفصّل رسول الله ﷺ هذا الخير تفصيلا يُعزز مطلع حديثه.

وتعد كلمة (ذلك) رابطاً إشاريا يرد انتباه المتلقي للجملة الاستهلالية. كما أن تكرار كلمة (خير) مرتين يعد تفسيراً وتفصيلاً وتوكيداً لكلمة (خير) الواردة في الاستهلال.

الافتتاح بالنداء:

استهل رسول الله ﷺ عدداً من أحاديثه بتركيب النداء، والنداء في أحاديثه ﷺ نوعان:

- **نداء عام:**

كقوله في الحديث الذي رواه عبد الله بن سلام ﷺ: "**أيها الناس** أفشوا السلام، وأطعموا الطعام وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام"(٣١).

- **نداء خاص:**

كقوله في الحديث الذي رواه معاذ ﷺأنّ رسول الله ﷺ أخذَ بيده وقال: "**يا معاذ**والله إني لأحبُّكَ ، ثم أوصيك يا معاذُ، تَدَعَنَّ في دُبُر كلِّ صلاة تقولُ : اللّهُمّ أعلى ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتك"(٣٢).

وفي الاستهلال بالنداء تنبيه للمستمع ولفت اهتمامه إلى مضمون الخطاب، ومواجهة له باللقب أو الكنية أو الاسم الذي نودي به.

ففي الحديث الأول استهل رسول الله خطابه لجمهور المستمعين بمناداتهم: "**أيها الناس**"، واختيار كلمة (الناس) تُوحي بعمومية الخطاب واتساعه ليشمل البشر كافة دون تخصيص.

والناظر في الرسالة التي وجهها رسول الله في خطابه يدرك علّة اختيار الرسول لهذا الاستهلال، فإفشاء السلام، واطعام الطعام، والصلاة في الليل أفعال إيجابية إنسانية لا تخص المسلمين وحدهم، فرسول الله رحمة للعالمين.

وفي الحديث الموجّه إلى معاذ،استهلّ رسول الله خطابه مع معاذ بلغة جسدية لها دلالة نفسية عميقة؛ فمعاذ قبل أن يروي الحديث يخبرنا بأن رسول الله قد (أخذ بيده)، وهذه الإشارة تدل على الحرص والحب والقرب والاهتمام.

ثم ناداه باسمه، فقال: (يا معاذ) وذلك يؤجج مشاعر المتلقي، ويشعره بخصوصيته ومكانته المتميزة عند رسول الله، فيستقبل خطاب الرسول بلهفة وحرص. ثم يُقسم له: (والله إني لأحبك)، كل ذلك قبل أن يبدأ

موضوع الخطاب، إنه ﷺ يؤكد حبه لمعاذ بالقسم (والله)، وأداة التوكيد المضاف إليها ياء المتكلم (إنّي)، ولام التوكيد (لأحبك)، وهذا يدفعنا إلى السؤال عن دور هذا الاستهلال في التمهيد للموضوع، فرسول الله ﷺ يدرك دور الحب في ايصال الفكرة للمتلقي، وترسيخها في نفسه، ودفعه لتطبيق مطلوبه.

ولا شكَّ في أنّ معاذاً ﷺ قد أصبح في قمة الاستعداد العاطفي والعقلي لتلقي الخطاب.

ثم ذكر رسول الله كلمة الوصية: "ثم **أوصيك** يا معاذ" وكلمة الوصية توصي برسالة خاصة نابعة عن حرص وخصوصية وتجربة.

وكرّر رسول الله مناداة معاذ باسمه زيادة في القرب وإظهاراً للاهتمام والخصوصية.

ثم بدأ رسول الله موضوع الخطاب، ولنا أن نتخيل لو اختار الرسول أسلوب التلقين المباشر دون البنية الاستهلالية السابق ذكرها وما أوجدته من دلالات، لما كان للرسالة ذلك الأثر النفسي العميق الذي أثاره الرسول في نفس متلقي الخطاب المباشر (معاذ) ومتلقي الخطاب غير المباشر (المستمع)، فقد أثار رسول الله فينا المشاعر ونحن نستمع للبنية الاستهلالية المختارة، فانتقل الأثر إلى دواخلنا، وصرنا نحرص، كما حرص معاذ، على قول هذا الدعاء المبارك (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) دُبر كل صلاةأي أنّ نجاح الخطاب وبراعته تتجلى في انتقاله من المتلقي الأول المقصود إلى كل متلقٍ يقرؤه أو يستمع إليه.

الافتتاح بتركيب الأمر وتركيب النهي:

وجاء تركيب الأمر وتركيب النهي في عدد من افتتاحيات أقواله ﷺ، وهذا النوع من الاستهلال قد يستفز قابلية المتلقّي في تنفيذ الأمر والنهي أو رفضهما، ولذلك فإننا نرى سول الله يعلّل ويفند أسباب أمره أو نهيه، لتكون الاستجابة واعية وقوية وراسخة في نفس المتلقيّ، الذي يعلم أنه علينا الانصياع لأوامر الرسول ونواهيه، ومع ذلك فالإنسان يحتاج غالبا إلى معرفة علّة الفعل ليُقْبِل عليه أو يدبر عنه.

ومن الاستهلال بالأمر قوله ﷺ في الحديث الذي رواه جابر ﷺ: "**اتقوا الظلم**،فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة،**واتقوا الشُّحَّ**فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"(٣٣).

ومن الاستهلال بالنهي قوله ﷺ: "**لا تقولوا** ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان"(٣٤).

وفي تأملنا للحديث الول نلاحظ أن كلمة **(الظلم)** التي تلت فعل الأمر **(اتقوا)** قد تكررت بعد الفاء التفسيرية وإنّ التوكيديّة (فلَّ)، وكذلك كلمة **(الشح)**، أي أنهما جاءتا مرتين، الأولى في أمر الاتقاء، والأُخرى في تعليل هذا الأمر، أي أنّ بُنية الاستهلال تغلغلت في صلب الحديث بهذا التعليل، وكأنَّ التعليل هو الذي كوّنها بالقالب الذي جاءت فيه؛ فالأمر ولّد السبب، والسبب ولّد الأمر.

كما أنَّ الناظر في الحديث السابق يستشعر وجود بنيتين استهلاليتين؛ الأولى: **(اتقوا الظلم)** والثانية: **(اتقوا الشح)** مجموعتيْن في خطاب واحد(لغوياً) وذلك بواو العطف و(دلالياً)؛ فاتقاء الشح نوع من أنواع اتقاء الظلم.

وفي قوله ﷺ: "**لا تقولوا** ماشاء الله وشاء فلان ..." نلاحظ أن جملة القول التي نهانا عنها الرسول ﷺ بقوله في مُستهلّ خطابه **(لا تقولوا)** تحققت في النّص بدلالة جديدة متناسبة مع مراد رسول الله "**ولكن قولوا** ماشاء الله ثمّ شاء فلان".

أي أنّ رسول الله يُقدّم البديل، وذلك من أساليب الإقناع الناجح، لأن من يسلب الآخر فعلاً أو قولاً سيترك مكان الشيء المسلوب فراغاً لا بدَّ من ملئه بما يريدُ السالبُ للفكرة أو السلوك من قول أوفعل، وإلاّ عاد المخاطَب إلى فعله أو قوله الأول أو ملأ الفراغ بما يريد هو من أقوال أو أفعال.

الافتتاح بأسلوب الشرط:

استخدم رسول الله أسلوب الشرط، وهذا كثير في استهلالات خطاباته- عليه الصلاة والسلام ، نذكر منها: ما جاء في استهلال الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال: "**من توضأ فأحسن الوضوء ثم**

أتى الجمعة، فاستمع وأنصت، غُفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام**ومن مس ّ الحصا** فقد لغا"(٣٥).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله**،ناداه مناد : بأن طبت، وطاب ممشاك،وتبو ّأت من الجنة منزلاً"(٣٦).

ومنه أيضاً قوله ﷺ في مستهل الحديث الذي رواه أنس ﷺ: "**من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره**، فليصل رحمه"(٣٧).

والناظر في الجملة الاستهلالية في قوله ﷺ: "**من توضأ فأحسن الوضوء**.." يلقى توضيحا وتفصيلا للأفعال وترتيبا محددا بحروف العطف:

توضأ ← فأحسن ← ثم ← أتى ← فاستمع ← وأنصت

وقد ترتب بعد هذا الاستهلال التفصيلي الذي بينه رسول الله ﷺ أن على المتلقي ضرورة الالتزام بتلك السلوكيات قبل أن يُواجَه بالنتيجة المُترَقَبة (غُفر له مابينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام).

ولا شك أنّ هذه النتيجة تُرجع المتلقّي مرة أخرى إلى الجملة الاستهلالية، ليتذكر المطلوب بعد أن رغب في المكافأة، الأمر الذي يجعل الخطاب متماسكا متلاحم العناصر .ونرى أنّ الشرط في خطاب الرسول ﷺ ملزم بطريقة غير مباشرة، فالرسول ﷺ يريد من المخاطبين الالتزام بالشيء من تلقاء أنفسهم بعد أن يتشربوا روعة النتيجة التي تؤول إليها الأفعال المقولبة في قالب الشرط الذي استُهلّ به الخطاب

وفي الحديث جملة استهلالية أخرى ارتبطت بالاستهلال الأول الشرطي وجوابه هي:و(من مس ّ الحصى) وجوابها الشرطي المختصر (فقد لغا) الذي توضحت أسبابه بما سبقه.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: "**من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله**....."ترغيب في أن يزور المخاطبُ المريض َ والأخ في الله، وقد استخدم أسلوب الشرط في مُستهل خطابه، والاستهلال بأسلوب الشرط (من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله) يجعل المخاطب مترقباً للنتيجة حريصاً على معرفتها(ناداه مناد : بأن طبت، وطاب ممشاك،وتبو ّأت من الجنة منزلاً).

فالاستهلال بفعل الشرط يبقى ناقص الدلالة ينتظر التتمة من جواب الشرط، وجواب الشرط يعيد المخاطب إلى فعل الشرط بعد أن أشبعه بالنتيجة التي آل إليها السبب، فيتحفز لتلك الزيارة لكونه راغبا في عاقبتها.

ويتبيّن هذا الاستهلال التحفيزي الذي جسّم النتيجة المرغوب فيها قبل بيان أسبابها، في قوله ﷺ: "**من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره** فليصل رحمه" فصلة الر ّحم هي السبب أو الفعل الذي إن صدر عن الإنسان بُسط له في رزقه ونسئ له في أثره، ولكن الرسول قدّم النتيجة واستهل بها خطابه لما فيها من الإغراء والتحفيز على فعل الشيء الذي يؤدّي إليها بكل رغبة وحماسة.

وفي قوله ﷺ (من أحب) تخيير، ظاهره يوحي بعدم الإلزام، وباطنه مفعَم بالإلحاح على صلة الرحم.

واستهلّ رسول الله ﷺ عدداً من خطاباته بأسلوب شرطيّ غير مباشر، وذلك باستخدامه (**لو**) وهو حرف امتناع لامتناع؛ أي أنه يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، وذلك كقوله في الحديث الذي رواه عمر ﷺ: "**لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّله** لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا"(٣٨).

ومطلع الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال: **لو كان لي مثل أُحُد ذهبا**لسر ّني أن لا تمر ّ عليّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين"(٣٩).

كما جاء في مطلع حديث آخر رواه أبو هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: "**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة** ماطمع بجنته أحد، **ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة**، ما قنط من جنته أحد"(٤٠).

فهو ﷺ يعني بقوله الذي استهلّ به خطابه الأول:

لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّله..." (توكّلوا على الله حقَّ توكّله) لأنكم أصبحتم مدركين بعد اطلاعكم على النتيجة التفصيلية (لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا) أنه عليكم أن تتوكّلوا.

وفي قوله ﷺ: **لو كان لي مثل أُحُد ذهبا**..." يجابه المتلقي بأمر لم يحدث جاعلا إياه متخيلا حدوثه، لتتحقق النتيجة المرادة بتحقق فعل يُؤمّلُ أن يصدر عن المتلقي هو إنفاق المال الكثير الذي يملكه في سبيل الله دون أن يستثني منه إلاّ شيء يرصده لدين.

وقد نسب الرسول ﷺ الأمر المُتخيل وردة الفعل أو النتيجة على وجوده إلى ذاته تحفيزا وترغيبا بالاقتداء بسلوكه لكل من يملك مالا فينفقه في سبيل الله.

وقد لا يخبر الرسول ﷺ –كما أخبر في الحديثين السابقين– المتلقي بأسلوب مباشر ومحدد أو مُبيّن بالخبر، فيكون في الاستهلال بالخبر المبهم إثارة لأفاق التخيّل عند المتلقي وتنبيه على النتيجة. وذلك ما جاء في الحديث الأخير: "**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة**...." فالمؤمن لا يعلم ما عند الله من العقوبة، وكذلك لا يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، وكأن رسول الله يقولب الخبر بهذا الأسلوب المثير، فمعنى **(لو يعلم)** هو **(اعلم)**؛ فهو بهذا الاستهلال يُعلم المؤمن أن يحذر مكر الله، ويُعلم الكافر أن لا يقنط من رحمة الله، فيبقى الأول على طريق الإيمان لا يحيد عنها، ويدخل الثاني باب رحمة الله المفتوح فلا يستمر على كفره قنوطا من رحمة الله.

الافتتاح بالعدد:

استهل رسول الله ﷺ عدداً من خطاباته بعدد مُحدد، ثم نجد تفصيلاً وتحديداً لذلك العدد الذي وجه الرسول ﷺ اهتمامَ متلقيه إلى معنى الحصر والتحديد فيه منذ البداية.

ومثاله ما جاء في مستهل الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة ﷺ: **ثلاث دعوات مستجابات لاشكَّ فيهن**، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده"[٤١].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: "**ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة، و لا يُزكّيهم،ولا ينظُرُ إليهم، ولهم عذاب أليم**:شيخٌزانٍ ،و ملِكٌ كذّاب، وعائلٌ مُستكبِر"[٤٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:**عينانِ لا تمسّهما النار**: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله"[٤٣].

إذا تأملنا الاستهلالفي الحديث الشريف الأول: "**ثلاث دعوات مستجابات لاشكَّ فيهن**..." نجد أن العدد الذي حدده الرسول جاء الخبر عنه (مستجابات) قبل تفصيل مضمونه، وأكد الرسول الخبر السابق بقوله (لاشك فيهن)، وهذا كله لإثارة المتلقي وتحفيز ذهنه واستجابته لمتابعة الخطاب والالتزام بمطلوب الفكرة ومعرفتها، ثم يُفصّل رسول الله ﷺما أجمله في مُستهلّ خطابه ببيان هذه الدعوات الثلاثة، فتتشعّب الجملة الاستفتاحية النواة في جسد الخطاب مُحققة تماسكه.

وفي الحديث الشريف الثاني: "**ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة، ولا يُزكّيهم، ولا ينظُرُ إليهم، ولهم عذاب أليم**..." جاء خبر العدد (ثلاثة)الذي استُهِلّ به الحديث الشريف مُرهِّبا المخاطب بما يحويه من دلالة غضب الله على هؤلاء الثلاثة الذين لم يُفصَح بعد عن هويتهم، فيتشوّق المخاطب للبيان والكشف عنهم، ويقف منكراكلّ واحد منهم على حدا لكونه عرف النتيجة التي سيؤول إليها مُسبقا.

كما يحدد رسول الله في افتتاح خطابه: "**عينانِ لا تمسّهما النار**..." أنهما عينان، وقد أطلق الجزء وأراد الكلّ، فالعين هنا هي الشخص، وتسميته بالعين، لأنه يستخدم عينه في سبيل الله، ثم أخبرناعليه الصلاة والسلام بخبر هاتيْن العينين، وهو خبر يتمنّى أن يكون صاحبَه كلُّ من سمعه وعلمه (لاتمسهما النار)، ويأتي التفصيل بعد هذا الإجمال المُشوّق (عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله).

ونلحظ ما في التفصيل من انسجام وتشابه في البنية اللغوية يجسّم المساواة والتكافؤ بينصاحبيْ هاتيْن العينين.

الافتتاح بضمير المتكلم (أنا):

افتتح رسول الله ﷺ طائفة من أقواله بضمير المتكلّم (أنا) و (إنّي) لتأكيد نسبة سلوك أو صفة إليه ﷺ ليكون قدوة للمسلمين ويُحفزّهم على الفعل بعد أن يُشوقهم لمعرفته لأنه منسوب إلى شخصه عليه الصلاة والسلام.

ومثاله ماجاء في الحديث الذي رواه سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**أنا وكافل اليتيم** في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما[٤٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم فقالوا: إنّك تواصلُ؟ قال: "**إنّي لستُ كهيئتكم** إنّي أبيتُ يُطعمني ربي ويَسقيني"[٤٥].

إنه ﷺ يُحفّز في الحديث الشريف الأول: "**أنا وكافل اليتيم**..."على كفالة اليتيم بهذا الاستهلال الذي جمع فيه بينه وبين من يكفل اليتيم، وجاء خبر هذا الابتداء في الاستهلال موضحا بلغة الجسد فتضافر البدء مع الخاتمة في تجلية الفكرة وترسيخها في الأذهان.

وفي الحديث الشريف الآخر: **إنّي لستُ كهيئتكم** ...فُصِّلَت جملة الاستهلال المُؤكَّدَة (إني لستُ كهيئتكم) ببيان من جنسها اللفظي (**إنّي** أبيتُ يُطعمني ربي ويسقيني). وفي هذا الاستهلال يتضح معنى النهي عن الوصال في العبادات،فإني لستُ كهيئتكم تعني: أنا أستطيع وأنتم لا تستطيعون فلا تواصلوا.

الافتتاح بـ (أما بعد):

وجاء هذا الافتتاح في خُطب الرسول ﷺ بعد أن يحمد الله ويثني عليه، فيكون الافتتاح بهذه العبارة تهيأةً للمتلقي باستقبال الخطاب وتلقّيه والانتباه لفحواه بما في هذا الاستهلال من تنغيم صوتي صاعد يوحي بالبدء.

ومثاله ما جاء في الحديث الذي رواه أبو حميد عبد الرحمن بن سعد السّاعدي ﷺ، قال: استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبيّة على الصدقة، فلما قدم قال:هذا لكم، وهذا أُهديَ إليَّ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "**أمّا بعدُ**، فإنّي أستعمل الرجل منكم على العمل ممّا ولانِي اللهُ، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أُهديت إليَّ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمّه حتى تأتيَهُ هديته إن كان صادقا، والله لا يأخذ أحدٌ منكم شيئا بغير حقّه إلاّ لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرفَنَّ أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خُوار، أو شاة تيْعر"ثمّ رفع يديه حتى رُئي بياض إبطيه فقال: " اللهم هل بلّغت"[٤٦].

إنّه ﷺ يستفتح خطبته بجملة يقدّمُ فيها ما جاء على لسان الرجل الذي ولاّه رسول الله أمر الصدقة (فإنّي استعمل الرجل منكم على العمل ممّا ولانِي اللهُ، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أُهديت إليَّ) مُبيّنا بهذا الافتتاح الذي نُبّه عليه بعبارة (أمّا بعد)أنّ هذه هي الفكرة الهامّة التي سيناقشها.

وبعد أن يبيّن ﷺ موقفه من هذا الأمر يختم خطبته بما يُجلّل الخطاب من أوله إلى آخره بهالة من الأهمية والتحذير والتنبيه، فهو يُقفِل الخطاب بقوله مخاطبا ربه ﷻ: "اللهم هل بلّغت" موحيا بأهمية الخطاب واستشعاره بالأمانة التي عليه إيصالها بطرائق البيان لتجليتها كي يلتزم المسلمون بها ويُؤدّونها.

وهكذا، وبعد هذه الإطلالة السريعة على عدد من البنى الافتتاحية في طائفة من أحاديثه ﷺ وجدنا أنه أسّس لأقواله تأسيساً بارعاً مقنعاً متصلاً بالمضامين المقصودة.

ولم ينحصر دور بنى الافتتاح أو الاستهلال بإغراء القارئ وشد انتباهه فحسب، فقد أدت وظيفة إخبارية، وشملت بذور المضمون الجوهريّة بصيغة متوترة مكثفة واضحة ومتماسكة، وامتدت إلى جسد النص بيسر وسهولة وبراعة مرتبطة برابط عضوي مع بقية عناصر الخطاب. إنها البدايات التي كونتها النهايات والنتائج، فرسول الله ﷺ أراد إيصال النتيجة للمتلقي فاختار استهلالات تؤدي إلى تلك النتائج وتحققها، فالنجاح في الاستهلال هو نجاح الهدف، والبداية هي العتبة التي ندخل بوساطتها عالم النص الرحيب، وتمكنا من العروج إلى فضاءات تأميلية واسعة.

وقد استخدم رسول الله التراكيب الإنشائية في جُلّ مطالع أقواله البديعة ثم توالت المضامين في السياق وتدفقت بغزارة مفسّرة المدلول المجمل الشامل لتلك المطالع الذكية، ولا يخفى هنا دور التنغيم المتولد من هذا الاختيار، فالمتلقي بعقله ومشاعره وجوارحه سيتلقف بفضل تلك البدايات المعلومة فيقتنع بها وينقلها إلى حيز الوجود.

الهوامش:

(١) ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري (ت ٦٣٧هـ)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق محمد عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، (ط١)، ص٦٤.

(٢) الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز (ت ٣٩٢هـ)، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ص٤٨.

(٣) ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد (ت ٥٨٤هـ)، **البديع في نقد الشعر**، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، مراجعة إبراهيم مصطفى، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٨٥.

(٤) السيد أحمد الهاشمي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ضبط وتدقيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩، ص١٩٦.

(٥) ياسين النصير، **الاستهلال: فن البدايات في النص الأدبي**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٣.

(٦) محمد بدري عبد الجليل، **براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور**، (ط٢)، ١٩٨٤م.

(٧) مسلم، **صحيح مسلم**، باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين، حديث رقم (٢٥٣).

(٨) مسلم، **صحيح مسلم**، باب بر الوالدين وصلة الأرحام، حديث رقم (٣٣٨).

(٩) البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الفضائل، باب الحث على سور وآيات مخصوصة، حديث رقم (١٠١١).

(١٠) مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الأمور المنهي عنها، باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان، حديث رقم (١٥٢٦).

(١١) مسلم، **صحيح مسلم**، باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم، حديث رقم (٢١٩).

(١٢) الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الأذكار، باب فضل الذكر والحث عليه، حديث رقم (١٤٤٤).

(١٣) مسلم، **صحيح مسلم**، باب الرجاء، حديث رقم (٤٣٣).

(١٤) مسلم، **صحيح مسلم**، باب حق الجار والوصية به، حديث رقم (٣٠٧).

(١٥) البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الاستغفار، باب الأمر بالاستغفار وفضله، حديث رقم (١٨٧٣).

(١٦) الترمذي، **سنن الترمذي**، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم (١٩٤).

(١٧) مسلم، **صحيح مسلم**، باب فضل الحب في الله والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه وماذا يقول له إذا أعلمه، حديث رقم (٣٨٠).

(١٨) مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، باب فضل المشي إلى المساجد، حديث رقم (١٠٥٩).

(١٩) مسلم، **صحيح مسلم** باب الحِلم والأناة والرفق، حديث رقم (٦٣٤).

(٢٠) مسلم، **صحيح مسلم**، باب الصبر، حديث رقم (٥٣).

(٢١) البخاري، **صحيح البخاري**، باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم، حديث رقم (٢٣٢).

(٢٢) مسلم، **صحيح مسلم**، باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم، حديث رقم (٢٣١).

(٢٣) الترمذي، **سنن الترمذي**، باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر، حديث رقم (٤٧٩).

(٢٤) الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الأمور المنهي عنها، باب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر، حديث رقم (١٧٥٩).

(٢٥) أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الأمور المنهي عنها، باب تحريم الحسد، حديث رقم (١٥٧٢).

(٢٦) مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب أدب الطعام، باب لا يعيب

الطعام واستحباب مدحه، حديث رقم (٧٣٨).

(٢٧) مسلم، **صحيح مسلم**، باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم، حديث رقم (٢٦٧).

(٢٨) البخاري**صحيح البخار ي**، كتاب الجهاد، باب فضل السماحة في البيع والشراء والأخذ والعطاء وحسن القضاء والتقاضي وا ٍرجاح المكيال والميزان والنهي عن التطفيف وفضل إنظار الموسر المعسر والوضع عنه، حديث رقم (١٣٧).

(٢٩) الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الفضائل، باب سنة العصر، حديث رقم (١١٢٢).

(٣٠) مسلم، **صحيح مسلم**، باب الصبر، حديث رقم (٢٨).

(٣١) الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الفضائل، باب فضل قيام الليل، حديث رقم (١١٦٩).

(٣٢) أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الأذكار، باب فضل الذكر والحث عليه، حديث رقم (١٤٢٥).

(٣٣) مسلم، **صحيح مسلم** باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم، حديث رقم (٢٠٤).

(٣٤) أبو داود، **سنن أبي داود**، كتاب الأمور المنهي عنها، باب كراهة قول ماشاء الله وشاء فلان، حديث رقم (١٧٤٨).

(٣٥) مسلم، **صحيح مسلم**، باب في بيان كثرة طرق الخير، حديث رقم (١٢٩).

(٣٦) الترمذي، **سنن الترمذي**، باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة، حديث رقم (٣٦٣).

(٣٧) مسلم، **صحيح مسلم**، باب بر الوالدين وصلة الأرحام، حديث رقم (٣٢١).

(٣٨) الترمذي، **سنن الترمذي**، باب في اليقين والتوكّل، حديث رقم (٨٠).

(٣٩) مسلم، **صحيح مسلم**، باب في اليقين والتوكّل، حديث رقم (٤٦٧).

(٤٠) مسلم، **صحيح مسلم**، باب الجمع بين الخوف والرجاء، حديث رقم (٤٤٥).

(٤١) الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب آداب السفر، باب استحباب الدعاء في السفر، حديث رقم (٩٨٢).

(٤٢) مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب المنثورات والملح، باب أحاديث الدجال وأشراط الساعة وغيرها، حديث رقم (١٨٥٥).

(٤٣) الترمذي، **سنن الترمذي**، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد وفضل الغدوة والروحة، حديث رقم (١٣٠٨).

(٤٤) البخاري، **صحيح البخاري**، باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم، حديث رقم (٢٦٣).

(٤٥) البخاري، **صحيح البخاري**، باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم، حديث رقم (٢٣١).

(٤٦) البخاري، **صحيح البخاري**، باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم، حديث رقم (٢١٠).